ماهية النفس الإنسانية تزكيتها ومراتبها بين التصوف الإسلامي والموروث اليهودي والمسيحي

The reality and stages of the human soul

In the Islamic mysticism, and the Jewish and Christian heritage

أ. م. د. عماد محمد فرحان

Assist. Prof. Imad Mohammed Farhan

كلية الإمام الأعظم - رحمه الله - الجامعة

Imam Aladham University

الملخص

إن النفس الإنسانية من الأسرار الكونية التي وقف العلم الحديث حائرا في تفسير كنهها وحقيقتها، فالروح والنفس والعقل والقلب أمور معنوية أكثر من كونها مادية، وقد استشف العلماء من النصوص المقدسة حقيقة النفس وماهيتها، وهذا البحث يسلط الضوء على هذا الموضوع، في دراسة مقارنة بين المصادر الإسلامية، من التفسير الإشاري وغيره وكتب التصوف من المؤلفين القدماء والمعاصرين، وقد قسمت بحثي إلى مقدمة وثلاثة مباحث، تكلمت في المبحث الأول عن تعريف النفس في اللغة، والاصطلاح، ثم عرجت على ماهية النفس في الكتاب المقدس، ثم عرفت بالتصوف، وكان المبحث الثاني مخصصا للكلام عن تزكية النفس عند الصوفية، وبيان مراتبها، وسبل تزكيتها، ونتائج التزكية وثمراتها، وأما المبحث الثالث فكان في تزكية النفس وتطهيرها في الكتاب المقدس، وقد اشتمل على سبل تزكية النفس في الكتاب المقدس، ونتائج تلك التزكية، وقد خلص البحث إلى جملة من النتائج يمكن الرجوع إليها في خاتمة البحث، ومن الله التوفيق.

الكلمات المفتاحية: النفس، الإنسان، التصوف، أهل الكتاب، الأديان السماوية.

Abstract

The human soul is one of the cosmic secrets that modern science has been perplexed in interpreting its being and truth, the soul, the spirit, the mind and the heart are more moral than material, and scientists have discerned from the sacred texts the truth of the soul and its essence, and this research highlights this topic, in a comparative study between Islamic sources, from the indicative interpretation and the books of ancient and contemporary Sufis, and I have divided my research into an introduction and three the second topic was devoted to talking about self-recommendation in Sufism, indicating its ranks, ways of giving it, and the results of giving it The third research was on self-recommendation and purification in the Bible, and it included the ways of self-recommendation in the Bible, and the results of that recommendation, and the research has concluded a number of results that can be referred to in the conclusion of the research.

Keywords: psyche, human soul, mysticism, Jews and Christian, Theology

المقدمة

الحمد لله الواحد الأحد، والصلاة والسلام على خاتم أنبيائه سيدنا محمد، وعلى آله وصحبه وبعد:

فإن ربنا تبارك وتعالى أقسم بالنفس الإنسانية في القرآنية لأهميتها، وبين أن المفلحين هم من يطهرون أنفسهم ويزكونها مما فيها من أمراض وأدران، فقال في محكم التنزيل: ﴿**وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّىٰهَا ۝٧ فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَىٰهَا ۝٨ قَدْ أَفْلَحَ مَن زَكَّىٰهَا ۝٩ وَقَدْ خَابَ مَن دَسَّىٰهَا ۝١٠**﴾.[1]

وإن البحث في النفس الإنسانية من الأبحاث المفيدة النافعة؛ إذ أن كل ما في الأرض من شرور وجرائم إنما مصدره النفس الأمارة، وقرينها الشيطان الرجيم، فمعرفة حقيقة النفس وتزكيتها وتطهيرها من أسمى الغايات، وأفضل القربات، وإن هذا البحث يبين ما ورد في القرآن الكريم والكتاب المقدس من نصوص تفصّل القول في حقيقة النفس الإنسانية، وتبين مراتبها والفروق بينها، وفق **المنهج الوصفي**.

وتتمثل إشكالية البحث في بيان مفهوم النفس عند علماء المسلمين ورجال الدين من أهل الكتاب، وبيان ماهية التصوف، وهل للنفس الإنسانية مراتب؟ وما هي الطرق التي بينتها الشريعة الإسلامية لتزكيتها، وهل ثمة ذكر لأهمية تزكية النفس في الموروث الديني لدى أهل الكتاب.

وأما الدراسات السابقة، فلم أقف على بحث أو رسالة أو كتاب يتكلم عن تزكية النفس وفق المنهج الأكاديمي ويدرسها في الأديان السماوية.

وقد اقتضت المادة العلمية تقسيم البحث إلى ثلاثة مباحث، كان المبحث الأول منها في تعريف النفس في اللغة، والاصطلاح، وتعريف النفس في الكتاب المقدس، ثم تعريف التصوف، وأما المبحث الثاني فتكلمت فيه عن تزكية النفس عند السادة الصوفية، وقسمته مطالب تخص مراتب النفس الإنسانية، ثم سبل تزكية النفس ونتائجها، ثم يأتي المبحث الثالث، ويخص تزكية النفس وتطهيرها في الكتاب المقدس، وجعلته في مطلبين، كان الأول منها في سبل تزكية النفس، والثاني نتائج تزكية النفس في الكتاب المقدس.

هذا، وطلبا للاختصار؛ لم أذكر بطاقات الكتب عند ذكرها لأول مرة في الهامش.

ومن الله التوفيق، هو نعم المولى ونعم النصير ...

---

(١) سورة الشمس: ٧ – ١٠.

المبحث الأول

التعريفات

المطلب الأول: تعريف النفس في اللغة:

النَّفْس، وجمعها النُّفُوس: لها معان متعددة، فالنَّفسُ هي: "الرّوح الذّي به حياة الجسد، وكلّ إنسانٍ نَفْسٌ حتّى آدم عليه السلام، سواء الذَّكَرُ والأنثى، وكلُّ شيءٍ بعينه نَفْسٌ، ورجلٌ له نَفسٌ، أي: خُلُق وجَلادة وسَخاء".[1]

والنَّفْس: "مِلء الكفّ من الدِّباغ. ويحكى أَن أَمَةً من بعض إِمَاء الْعَرَب جَاءَت مستعجلةً الى قوم فَقَالَت لَهُم: تَقول لكم مولاتي: أعطوني نَفْساً أَو نَفْسين فَإِنِّي أفِدَة، أَي مستعجلة... وأصابت فلَانا نَفْسٌ، أَي عَين... والنَّفْس: المَاء، سُمّي نَفْساً لِأَن بِهِ قِوام النَّفْس، والنَّفْس: الدَّم... وَرجل نَفوس، إِذا كَانَ يُصِيب النَّاس بِالْعينِ".[2]

وقيل: سُميت النفس نفساً، لتولُّدِ النفَس منها، واتصاله بها؛ كما سَمُّوا الروح روحاً؛ لأن الروح موجود بها، وبعض اللغويين يُسَوّي بين النفس والروح فيقول: هما شيء واحد، إلاّ أنّ النفس مؤنثة، والروح مذكّر.[3]

ورُوِي عَن ابْن عبّاس رضي الله عنهما أَنه قَالَ: "لكل إنسانٍ نفسان: أَحدهمَا: نَفْسُ العَقْل الَّتِي يكون بهَا التَّمْيِيز، وَالْأُخْرَى نفسُ الرُّوح الّتي بهَا الْحَيَاة" وقيل: الرُّوحُ هُوَ الّذي بِهِ الْحَيَاة، والنَّفْسُ هِيَ الَّتِي بهَا العَقْل، فَإِذا نَام النائمُ قَبَض اللَّهُ نفسَه وَلم يَقبض رُوحَه، وَلَا يقبَض الرُّوحُ إلاّ عِنْد المَوْت، وسمِّيَت النَّفْس نَفْساً لتولُّد النَّفَس مِنْهَا، واتصاله بهَا، كَمَا سمَّوا الرُّوح رُوْحاً، لأنّ الرَّوْحَ مَوْجُود بِهِ.[4]

قال الشاعر:

نـجـا سـالِـمٌ والـنَـفْـسُ منـه بِـشِـدْقِـه ولـم يَـنْـجُ إلا جَـفْـنَ سـيـفٍ ومِـئـزرا[5]

---

(١) العين: ٧/ ٢٧٠ مادة (ن ف س).

(٢) جمهرة اللغة: ٢/ ٨٤٨ مادة (س ف ن).

(٣) الزاهر في معاني كلمات الناس: ١٢/ ٣٧٤.

(٤) تهذيب اللغة: ١٣/ ٨ مادة (س ن ف).

(٥) البيت من البحر الطويل، وهو لحذيفة بن أنس الهذلي. ينظر: العقد الفريد ٥/ ٢٤٤، وقيل لأبي خراش الهذلي، وقيل لغيره ينظر: تذكرة النحاة ص ٥٢٦، وجمهرة اللغة ص ١٣١٩.

أي بجفن سيف ومئزر، وتأتي النَفْسُ بمعنى الدمُ؛ يقال: سالت نَفْسُهُ، أي دمه، وفي الفقه "ما ليس له نَفْسٌ سائِلَةٌ فإنَّه لا يُنَجِّسُ الماءَ إذا مات فيه" والنَفْسُ أيضاً: الجسدُ. وقال الشاعر:

نُبِّئْتُ أنَّ بني سُحَيْمٍ أَدخلوا أبياتَهُمْ تامورَ نَفْسِ المُنْذِرِ[1]

"وأمَّا قول العرب: ثلاثة أنْفُسٍ، فيذكِّرونه لأنَّهم يريدون به الإنسان... والنافِسُ: الخامسُ من سهام الميسر، ويقال هو الرابع".[2]

المطلب الثاني: النفس اصطلاحا

يعرّف بعض العلماء النفس بأنها: «القوة التي بها جسم الحي حياً، ويستدل على إثباتها بما يظهر من الأفعال عن جسم الحي عند تصوره بها، النفس الكلية في مثل الإنسان الكلي الذي هو نوع كزيد وعمرو وجميع أشخاص الناس كذلك، والنفس العامة هي التي تعم نفس زيد وعمرو وكل شخص من أشخاص الحيوان ولا وجد لها إلا بالوهم كما لا وجود للإنسان الكلي إلا بالوهم وكذلك العقلي الكلي، وأما أن تكون النفس نفساً كلية لها وجود بالذات كما يقوله كثير من الفلاسفة فلا".[3]

وفي الفرق بين العقل والنفس والروح قيل: العقل جوهر مجرد عن المادة، وهو الذي يدرك المعاني الكلية والحقائق المعنوية. مشتق من عقل البعير عقلا، إذا شده، سمي به؛ لأنه يمنع صاحبه عن ارتكاب مالا ينبغي، مثل العقال وهذا الجوهر سمي نفسا باعتبار تعلقه بالبدن، وهي النفس الناطقة، ويسمى عقلا باعتبار نسبته إلى عالم القدس لما فيه من معنى الاشتقاق. أما النفس فتطلق على النفس التي تنطق، وهي المعبر عنها بقولك: (أنا) وهي التي عنى الله سبحانه بقوله تعالى: ﴿**وَكَتَبْنَا عَلَيْهِمْ فِيهَآ أَنَّ ٱلنَّفْسَ بِٱلنَّفْسِ**﴾[4] وتطلق على العقل باعتبار تعلقه بالبدن، وهي النفس الناطقة، وتطلق أيضا وعلى القوة الداعية إلى الشرور، والموقعة صاحبها في المحذور، وهي التي عنى الله سبحانه بقوله: ﴿* **وَمَآ أُبَرِّئُ نَفْسِيٓۚ إِنَّ ٱلنَّفْسَ لَأَمَّارَةٌۢ بِٱلسُّوٓءِ**﴾[5] وتطلق وعلى الروح أيضا، كما ورد في الاخبار... فيحصل من ذلك أن للعقل ثلاث إطلاقات، وللنفس أربعة وإن كلا منهما يطلق على الآخر في مادة وتنفرد النفس في ثلاث، فيكون بينهما عموم وخصوص من وجه، وأما الروح: فهي ما به الحياة، وقد تطلق على النفس أيضا.[6]

---

(١) ديوان أوس بن حجر: ٤٧ وهو من البحر الكامل، والتامورُ: الدمُ.

(٢) الصحاح تاج اللغة وصحاح العربية: ٣/ ٩٨٤.

(٣) مفاتيح العلوم: ١٥٧.

(٤) سورة المائدة: ٤٥.

(٥) سورة يوسف: ٥٣.

(٦) ينظر: معجم الفروق اللغوية: ٥٢١.

وقد وردت كلمة (نفس) في القرآن الكريم مئتين وثماني وستين مرة، بصيغ كثيرة، منها (أنفسهم، أنفسكم، نفس، نفسه، أنفسهن، أنفسنا، نفسي، النفس) وهذا يدل على مكانة النفس وأهميتها في القرآن الكريم.

المطلب الثالث: ماهية النفس في الكتاب المقدس

تدل النفس على الإنسان في كليته، باعتباره منتعشا بروح الحياة، وهي لا تكون قط جزءا يشكل مع الجسم الكائن الإنساني، فالنفس - بالمعنى الدقيق - لا تسكن جسدا، وإنما تعبر عن ذاتها بواسطة الجسم، الذي يعتبر هو أيضا - أسوة بالجسد - دالا على الإنسان بكليته، وإذا كانت النفس بسبب علاقتها بالروح الأسمى، هي الدليل في الإنسان على أصله الروحي، فهذه الروحانية تغرس جذورها بعمق في العالم الملموس، كما يتضح من التوسع في الاستعمال الجاري للفظة نفس.[١]

وفي أساليب الكتاب المقدس، تتصل الألفاظ المعبرة عن النفس - بصفة مباشرة - بصورة النسمة، وهي (نفش) في اللغة العبرية، فالنسمة أو التنفس هما في الواقع العلامة المثلى للحياة، وكون الشخص حيا معناه أن الروح ما زالت فيه[٢] وعندما يموت الإنسان تنطلق النفس[٣] وتفيض[٤]أو تنسكب كالسائل[٥] فإذا ما قام حيا من جديد فالنفس تعود إليه[٦] ووفق نظرة شائعة تؤكدها صراحة بعض الفلسفات اليونانية، تكاد النفس تصبح مبدأ قائما مستمرا، مستقلا عن الجسم الذي تقيم فيه ومنه تخرج، وهذا مفهوم روحاني يعتمد - ولا شك - على الطابع الشبه لا مادي في النسمة، خلافا للحال في الجسم المادي، ولكن الرأي يختلف عند الساميين، فالنسمة تظل غير قابلة للانفصام عن الجسم الذي تنعشه، فهي تشير فقط إلى الصورة التي عليها تظهر الحياة الملموسة في الإنسان، وقبل كل شيء عن طريق ما يتحرك فيه، حتى عندما يكون الظاهر غير متحرك، بينما الإنسان نائم، أفلا يكون ذلك أحد الأسباب العميقة التي أدت إلى جعل النفس والدم واحدا[٧] فالنفس تكون في الدم[٨] بل هي الدم ذاته[٩] وهي الإنسان الحي.[١٠]

(١) معجم اللاهوت الكتابي: ٨١١.

(٢) صموئيل ١: ٩.

(٣) تكوين ٣٥: ١٨.

(٤) إرميا ١٥: ٩.

(٥) إشعيا ٥٣: ١٢.

(٦) ١ملوك ١٧: ٢١.

(٧) مزمور ٧٢: ١٤.

(٨) لاويين ١٧ : ١٠ - ١١.

(٩) لاويين ١٧: ١٤.

(١٠) معجم اللاهوت الكتابي: ٨١١.

المطلب الرابع: تعريف التصوف

تعريف التصوف - وإن كان أشبع دراسة - فلابد من المرور عليه سريعا، فالتصوف في اللغة: مأخوذ إما من الصف الواحد، أو الصوف، أو أهل الصفة، أو الصفاء، على خلاف بين العلماء، «فأما قَوْل من قَالَ إنه من الصوف وتصوف إِذَا لبس الصوف، كَمَا يقال: تقمص إِذَا لبس القميص فذلك وجه، لكن الْقَوْم لَمْ يختصوا بلبس الصوف، ومن قَالَ إنهم منسوبون إِلَى صفة مَسْجِد رَسُول اللَّهِ ﷺ فالنسبة إِلَى الصفة لا تجيء عَلَى نَحْو الصوفي ومن قَالَ: إنه من الصفاء فاشتقاق الصوفي من الصفاء بعيد فِي مقتضى اللغة، وقول من قَالَ: إنه مشتق من الصف فكأنهم فِي الصف الأَوَّل بقلوبهم من حيث المحاضرة من اللَّه تَعَالَى فالمعنى صحيح، ولكن اللغة لا تقتضى هذه النسبة إِلَى الصف".[1]

في حين يرى البعض أن الكلمة مشتقة من (الصوفانة) وهي بقلة رعناء قصيرة فنسبوا إليها لاجتزائهم بنبات الصحراء، وهذا أيضا غلط لأنه لو نسبوا إليها لقيل صوفاني، وقال آخرون هو منسوب إِلَى صوفة القفا وهي الشعرات النابتة فِي مؤخره كأن الصوفي عطف به إِلَى الحق وصرفه عَن الخلق.[2]

ولا يمكن الترجيح بين هذه الآراء اللغوية؛ إذ أنها كلها تحتمل الصواب.

وأما في الاصطلاح فقد كثرت التعريفات، إلا أنها جميعها متقاربة، ومنها على سبيل المثال لا الحصر:

فقد عرفه زكريا الأنصاري بأنه: "علم تعرف به أحوال تزكية النفوس، وتصفية الأخلاق وتعمير الظاهر والباطن لنيل السعادة الأبدية". وعرفه الشيخ أحمد زروق بأنه: "علم قصد لإصلاح القلوب وإفرادها لله سبحانه وتعالى عما سواه، والفقه لإصلاح العمل وحفظ النظام وظهور الحكمة بالأحكام. والأصول «علم التوحيد» لتحقيق المقدمات بالبراهين وتحلية الإيمان بالإيقان. وقال أيضا: وقد حُدِّ التصوف ورسم وفسر بوجوه تبلغ نحو الألفين مرجع، كلها لصدق التوجه إلى الله، وإنما هي وجوه فيه". وعرفه الجنيد البغدادي بأنه: "استعمال كل خلق سني، وترك كل خلق دني". وعرفه أبو الحسن الشاذلي بأنه: "تدريب النفس على العبودية، وردها لأحكام الربوبية". ونختم بتعريف ابن عجيبة: "التصوف هو علم يعرف به كيفية السلوك إلى حضرة ملك الملوك، وتصفية البواطن من الرذائل، وتحليتها بأنواع الفضائل، وأوله علم، ووسطه عمل، وآخره موهبة".[3]

---

(١) الرسالة القشيرية: ٣/ ٤٤٠.

(٢) ينظر: تلبيس إبليس: ١٤٦.

(٣) ينظر: هامش الرسالة القشيرية:٧ ، قواعد التصوف، لأحمد زروق، قاعدة ١٣ ص ٦ ، النصرة النبوية، لمصطفى المدني: ٢٢، نور التحقيق، لحامد صقر:٩٣ ، معراج التشوف إلى حقائق التصوف، لأحمد بن عجيبة الحسني: ٤.

المبحث الثاني

تزكية النفس ومراتبها عند الصوفية المسلمين

المطلب الأول: مراتب النفس الإنسانية

يحدّد بعض العلماء مراتب النفس الإنسانية بثلاثة مراتب، وبعضهم جعلها أربعة، في حين أوصلها بعضهم إلى سبعة، فأما القائلون بأنها ثلاثة مراتب، فهم اعتمدوا على ظاهر ما ورد في القرآن الكريم من آيات كريمة تصف حالة النفس الإنسانية، وهذه المراتب هي:

المرتبة الأولى: النفس الأمارة بالسوء

قال تعالى في كتابه الكريم: ﴿۞ وَمَآ أُبَرِّئُ نَفۡسِيٓۚ إِنَّ ٱلنَّفۡسَ لَأَمَّارَةُۢ بِٱلسُّوٓءِ إِلَّا مَا رَحِمَ رَبِّيٓۚ إِنَّ رَبِّي غَفُورٞ رَّحِيمٞ ٥٣﴾[1] قالوا إن النفس الإنسانية شيء واحد... إذا مالت إلى الشهوة والغضب كانت أمارة بالسوء، وكونها أمارة بالسوء يفيد المبالغة والسبب فيه أن النفس من أول حدوثها قد ألفت المحسوسات والتذت بها وعشقتها، فأما شعورها بعالم المجردات وميلها إليه.[2] وقيل قديما: رأس الطواغيت كلها النفس الأمارة بالسوء، لأن الشيطان لا يقدر على الإنسان إلّا من طريق هوى النفس، فإن أحس منها بما تهم به ألقى إليها الوسوسة.[3]

المرتبة الثانية: النفس اللوامة

قال تعالى: ﴿وَلَآ أُقۡسِمُ بِٱلنَّفۡسِ ٱللَّوَّامَةِ ٢﴾[4] فكل نفس متوسطة ليست بالمطمئنة ولا بالأمارة بالسوء، فإنها لوامة في الطرفين مرة تلوم على ترك الطاعة، ومرة تلوم على فوت ما تشتهي، فإذا اطمأنت خلصت وصفت.[5]

---

(١) سورة يوسف: ٥٣.

(٢) مفاتح الغيب للرازي: ١٨/ ٤٧١.

(٣) تفسير التستري: ٣٧.

(٤) سورة القيامة: ٢.

(٥) المحرر الوجيز لابن عطية: ٥/ ٤٠٢.

في حين يرى بعض العلماء أن النفس اللوامة هي التي اكتسبت بعض الفضيلة، فتلوم صاحبها إذا ارتكب مكروهاً، فهي دون النفس المطمئنة، وقيل: بل هي النفس التي اطمأنت في ذاتها، وترشحت لتأديب غيرها؛ فهي فوق النفس المطمئنة.(١)

المرتبة الثالثة: النفس المطمئنة (المزكاة)

قال تعالى: ﴿**قَدۡ أَفۡلَحَ مَن زَكَّىٰهَا ۝٩**﴾(٢) فاللوامة تلوم على فعل الشر، والأمارة تأمر به، والمطمئنة ساكنة لما وعدت ومتواضعة لقبول ما به أمرت، خاضعة تحت مجاري الأقدار، خاشعة لله الواحد القهار. ثم قيل: هي ثلاث نفوس على ظاهر القرآن، وقيل: نفس واحدة لها ثلاث قوى أو ثلاثة أحوال، تارة تلوم، وتارة أمر، وتارة تطمئن، والله-عز وجل-أعلم بخلقه.(٣) والذي عليه أكثر المحققين من المتكلمين وغيرهم أن النفس الإنسانية واحدة ولها صفات: منها الأمارة بالسوء، ومنها اللوامة، ومنها المطمئنة فهذه الثلاث المراتب هي صفات لنفس واحدة فإذا دعت النفس إلى شهواها مالت إليها فهي النفس الأمارة بالسوء فإذا فعلتها أتت النفس اللوامة فلامتها على ذلك الفعل القبيح من ارتكاب الشهوات ويحصل عند ذلك الندامة على ذلك الفعل القبيح وهذا من صفات النفس المطمئنة، وقيل: إن النفس أمارة بالسوء بطبعها فإذا تزكت وصفت من أخلاقها الذميمة صارت مطمئنة.(٤)

وأما من قالوا بأن للنفس أربعة مراتب، فقد أضافوا إليها: **النفس الملهمة**، قال تعالى: ﴿**وَنَفۡسٖ وَمَا سَوَّىٰهَا ۝٧ فَأَلۡهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقۡوَىٰهَا ۝٨**﴾.(٥)

يقول المفسرون: ان الحاجة الى التعبير انما هي في مرتبة النفس الامارة واللوامة وإذا وصل السالك الى النفس الملهمة، قل احتياجه الى التعبير لأنه حينئذ يكون ملهما من الله تعالى.(٦)

وأما من يرون أن للنفس سبع مراتب، فقد أضافوا إليها، **الراضية والمرضية، والكاملة**، وللسادة الصوفية قدست نفوسهم كلام طويل في تقسيم مراتب النفس وقالوا إن الآية متضمنة لمراتب ثلاث منها المطمئنة والراضية والمرضية وفسروا كلا بما فسروه.(٧)

---

(١) حاشية الطيبي على الكشاف: ١٦/ ١٥٧.

(٢) سورة الشمس: ٩.

(٣) الإشارات الإلهية للطوفي: ٦٦٦.

(٤) لباب التأويل للخازن: ٢/ ٥٣٤.

(٥) سورة الشمس: ٨.

(٦) روح البيان: ١٠/ ٤٧٠.

(٧) ينظر: روح المعاني للآلوسي: ١٥/ ٣٤٨.

بناء على ما تقدم، فقد ذكر القرآن الكريم للنفس خمس مراتب: الأمارة بالسّوء، واللّوامة، والمطمئنّة، والراضية، والمرضية، ويزاد: الملهمة، والكاملة، فالأمارة بالسوء هي التي تأمر صاحبها بالسّوء، ولا تأمر بالخير إلا نادرا، وهي مقهورة، ومحكومة للشّهوات. وإن سكنت لأداء الواجبات الإلهية، وأذعنت لاتباع الحق؛ لكن بقي فيها ميل للشّهوات؛ سمّيت: لوّامة، وإن زال هذا الميل، وقويت على معارضة الشّهوات، وزاد ميلها إلى عالم القدس، وتلقّت الإلهامات؛ سمّيت: ملهمة. فإن سكن اضطرابها، ولم يبق للنفس الشّهوانية حكم أصلا؛ سميت: مطمئنّة، فإن ترقّت من هذا، وأسقطت المقامات من عينها، وفنيت على جميع مراداتها؛ سميت: راضية، فإن زاد هذا الحال عليها؛ صارت مرضية عند الحقّ، وعند الخلق، فإن أمرت بالرّجوع إلى العباد لإرشادهم، وتكميلهم؛ سمّيت كاملة، فالنفس سبع طبقات، ولها سبع درجات، كما ذكرت، وقدمت.[1]

المطلب الثاني: سبل تزكية النفس ونتائجها

إن اجتماع القلب يكون مع طيب النفس وطمأنينتها بالإيمان أو فلاحها بالتزكية والرضا، قال الرسول ﷺ : ((طيب النفس من النعيم))[2] وقال الله تعالى: ﴿قَدْ أَفْلَحَ مَن زَكَّىٰهَا ۝٩ ﴾[3] وقال تعالى: ﴿رَاضِيَةً مَّرْضِيَّةً ۝٢٨ ﴾[4] فيكون متوحّداً بالروح مخلقة بأخلاق الإيمان مواطئة للقلب بمشاهدة اليقين.[5] وقد رد في الحديث عن النبي ﷺ أنه قال: ((رجعنا من الجهاد الأصغر إلى الجهاد الأكبر)) قالوا: وما الجهاد الأكبر يا رسول الله؟ قال: ((جهاد النفس)).[6]

(١) ينظر: تفسير القرآن الكريم وإعرابه وبيانه: ١/ ٤٦.

(٢) سنن ابن ماجه، أبواب التجارات، باب الحث على المكاسب، ٣/ ٢٧٣ برقم (٢١٤٠) ، المستدرك على الصحيحين للحاكم، كتاب البيوع، ٢/ ٣ برقم (١١٣١) وقال عنه الحاكم: «هَذَا حَدِيثٌ مَدَنِيٌّ صَحِيحُ الْإِسْنَادِ وَلَمْ يُخَرِّجَاهُ، وَالصَّحَابِيُّ الَّذِي لَمْ يُسَمِّهِ سُلَيْمَانُ بْنُ بِلَالٍ هُوَ يَسَارُ بْنُ عَبْدِ اللَّهِ الْجُهَنِيُّ" ووافقه الذهبي، وقال عنه الشيخ شعيب الأرناؤوط: إسناده حسن...

(٣) الشمس: ٩.

(٤) الفجر: ٢٨.

(٥) قوت القلوب: ١/ ٤٤٨.

(٦) الحديث: عن سيدنا جابر رضي الله عنه أنه قال: قدم على النبي ﷺ قوم غزاة فقال: «قدمتم خير مقدم، قدمتم من الجهاد الأصغر إلى الجهاد الأكبر مجاهدة العبد هواه». أخرجه الديلمي، وذكر الإمام السيوطي في الجامع الصغير: أن رسول الله ﷺ قال: «قدمتم خير مقدم، وقدمتم من الجهاد الأصغر إلى الجهاد الأكبر: مجاهدة العبد هواه» أخرجه الخطيب في التاريخ عن جابر وقال عنه السيوطي: ضعيف، وذكره الحافظ العراقي في تخريجه لأحاديث الإحياء بلفظ: «رجعنا من الجهاد الأصغر إلى الجهاد الأكبر» وقال: أخرجه البيهقي في الزهد من حديث جابر وقال: هذا إسناد فيه ضعف. جمع الجوامع الجامع الكبير: ٦/ ٢٠١ برقم (١٥٣٥٠).

فالنفس هي الرابطة بيننا وبين الله؛ فقد بيّن لها تعالى الفجور فجوراً ونهاها عنه، وبيّن لها التقوى تقوى وأمرها بها، والنفس عدوّ داخلي، والشيطان عدوّ خارجي، والعدو الخارجي لا يقدر أن يدخل الوساوس إلاّ بواسطة العدو الداخلي، فإذا تزكت النفس ما بقي للشيطان سبيل، إذا أتى الشيطان إلى شخص رآه يقظاً يهرب؛ كان الرسول ﷺ يشهد لسيدنا عمر ﷺ : (إِيهًا يَا ابْنَ الْخَطَّابِ، وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ، مَا لَقِيَكَ الشَّيْطَانُ سَالِكًا فَجًّا قَطُّ إِلَّا سَلَكَ فَجًّا غَيْرَ فَجِّكَ)[1] فالّذي يقبل النور هي النفس التي تزكت، فالنفس هي الأصل، أصل العقل، والروح، والقلب، والسرّ؛ لذلك ما كلّف الله غيرها، كلّفها وثقّل عليها وقال ﴿لَا يُكَلِّفُ ٱللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا﴾[2] النفس هي حقيقة الإنسان، لما يزكيها الإنسان ويطهرها هي الوسيلة والواسطة بينه وبين الحق سبحانه وتعالى بالعلوم اللدنية والعرفانية ويطلعه على الأسرار الموجودة كلها؛ لأجل ذلك الحق تعالى كلّفها لكي لا تدّعي وتنسب لها شيئا، أما الّذي يقول: (عملت، وضربت بالشيش، ورأيت مناماتٍ، وذكرت وبكيت..) اعلموا أنه لم يعرف شيئاً البتة! نفهم أنه مدّعٍ، لم يفهم شيئاً، أصعب شيء الادعاء الكاذب، يقول الصوفية: (كل مدّعٍ مفضوح) مهما عملتم، مهما صليتهم، مهما صمتم والنفس حية، بمجرد غضبة من الغضبات كل هذا يذهب هباءً! تريد النفس أن تنسب كل ذلك لها، والدعوى لا تأتي إلاّ من الجهل، الله خلقنا وخلق عملنا، هذه يعرفها الّذي طهر نفسه وزكّاها، وعرف مصدر القوة الحقيقي {إِنَّ الْقُوَّةَ لِلّهِ جَمِيعاً}[3].[4]

وفي القرآن من كيفية العبادات والأعمال التي تفيد تزكية النفس، ومعرفة طريق تزكية النفس، تفيد استعداد النفس لقبول الهدايا إلى معرفة الله سبحانه وتعالى، كما قال تعالى: ﴿قَدْ أَفْلَحَ مَن زَكَّىٰهَا ۝٩﴾ وقال عز وجل ﴿وَٱلَّذِينَ جَٰهَدُواْ فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا﴾[5] فتكون جملة هذه المعارف كالوسائل إلى تحقيق معرفة الله تعالى وإنما الكمال في معرفة الله ومعرفة صفاته وأفعاله وينطوي فيه جميع المعارف المحيطة بالموجودات؛ إذ الموجودات كلها من أفعاله فمن عرفها من حيث هي فعل الله تعالى ومن حيث ارتباطها بالقدرة والإرادة والحكمة فهي من تكملة معرفة الله تعالى وهذا حكم كمال العلم ذكرناه وإن لم يكن لائقا بأحكام الجاه والرياء ولكن أوردناه لاستيفاء أقسام الكمال.[6]

(١) صحيح البخاري، ٣/ ١٣٤٧ برقم (٣٤٨٠) كتاب فضائل الصحابة، باب مناقب عمر بن الخطاب أبي حفص القرشي العدوي .

(٢) سورة البقرة: ٢٨٦.

(٣) سورة البقرة: ١٦٥.

(٤) السيد النبهان: ٢/ ١٨٧.

(٥) سورة العنكبوت: ٦٩.

(٦) إحياء علوم الدين: ٣/ ٢٨٣.

فمعنى الآية الكريمة: قد أفلح من كبرها وأعلاها بطاعة الله وأظهرها، وقد خسر من أخفاها وحقرها وصغرها بمعصية الله، وأصل التدسية: الإخفاء، ومنه قوله تعالى: ﴿أَمْ يَدُسُّهُۥ فِى ٱلتُّرَابِ﴾[1] فالعاصي يدس نفسه في المعصية، ويخفي مكانها، يتوارى من الخلق من سوء ما يأتي به، وقد انقمع عند نفسه، وانقمع عند الله، وانقمع عند الخلق، فالطاعة والبر تكبر النفس وتعزها وتعليها، حتى تصير أشرف شيء وأكبره، وأزكاه وأعلاه، ومع ذلك فهي أذل شيء وأحقره وأصغره لله تعالى، وبهذا الذل حصل لها هذا العز والشرف والنمو، فما أصغر النفوس مثل معصية الله، وما كبرها وشرفها ورفعها مثل طاعة الله.[2]

وإن معظم الناس لا يهتمون بتزكية النفس، مع كونها الحجاب الغليظ بيننا وبين الله تعالى، قال عز وجل: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ قَـٰتِلُواْ ٱلَّذِينَ يَلُونَكُم مِّنَ ٱلْكُفَّارِ﴾[3] وهي النفس قبل كل شيء، ولما تتزكى فالتجلي الإلهي ظاهر فيك جداً، وإذا لم تتزكَّ فهي أم الدعاوي (أنا.. أنا) لا تؤمنوا بها أبداً، النفس المدّعية (أنا.. أنا) النفس مخلوقة لله لابدّ من معرفتها، وهذا أمر ضروري وهي مطية الإنسان ومكلفة من قبل الحضرة الإلهية، بعد أن تتزكى وتعرف إذا ظهر منها خير تنسبه لله لا تنسبه لنفسها، العمى الحقيقي أن الإنسان ينسب الأشياء لنفسه ولا ينسبها لربه، فالّذي ينسب الأشياء لنفسه ما منه خير أبداً، والّذي ينسبها لله يرجع ويرى نفسه إذا عمل موافقةً يشكر الله، وإذا عمل مخالفة يتوب وينذل وينكسر إلى الله.. هذا هو العدل، والقوة له، لماذا تستعملون هذه القوة التي ليست لكم في غير ما أمر الله؟ ضروري أن تفهموا أن النفس هي محل الخطأ وهي محل النور، تفهمون بمقداركم، نحن قائمون بين الأمر والنهي، إذا وقعت منكم مخالفة لا تقولوا: مقدَّر، الله لا يقدّر الذنوب أبداً، هذا من أنفسكم الأمارة.[4]

وقد عبر تعالى عن خلق النفس بالتسوية للدلالة على الاعتدال والتمام، ثم أخبر عن قبولها للفجور والتقوى، وأن ذلك نالها منه امتحانا واختبارا، ثم خص بالفلاح من زكاها فنماها وعلاها، ورفعها بآدابه التي أدب بها رسله وأنبياءه وأولياءه، وهي التقوى، ثم حكم بالشقاء على من دساها فأخفاها وحقرها، وصغرها وقمعها بالفجور.[5] من عمل خيرا زكاها بطاعة الله عز وجل، قد أفلح من زكى نفسه بعمل صالح، قد أفلح من زكى نفسه فأصلحها وحملها على طاعة الله تعالى، وقد خاب من أهلكها وحملها على معصية الله تعالى، وقيل: يريد أفلح من زكى نفسه، أي نماها وأعلاها بالطاعة والبر والصدقة، واصطناع المعروف.[6]

---

(١) سورة النحل: ٥٩.

(٢) الداء والدواء - الجواب الكافي: ٧٨.

(٣) سورة التوبة: ١٢٣.

(٤) السيد النبهان: ٢/ ١٩٢.

(٥) مدارج السالكين: ٢/ ٣٦١.

(٦) إغاثة اللهفان في مصائد الشيطان: ١/ ٥١.

المبحث الثالث

تزكية النفس وتطهيرها في الكتاب المقدس

المطلب الأول: سبل تزكية النفس في الكتاب المقدس

إن الكتاب المقدس بعهديه - القديم والجديد - مليء بالنصوص التي تحض على تزكية النفس من الشهوات والأهواء، وتطهيرها من الآثام والخطايا، وقد بينت هذه النصوص بعض الطرق التي ينبغي على العبد السير عليها لكي تزكو نفسه، منها:

أولا: مخالفة هوى النفس وشهواتها

تنوعت الشهوات بكثرة في حياة الإنسان، فمنها شهوة الجسد والرغبة في تحقيق المناصب والرئاسة، والرغبة في العظمة والكرامة، وشهوة التراكم المالي، والاشتياق لامتلاك الأشياء، ورغبة في التميز والشهرة، ورغبة في الزينة والجمال، والإحساس بالسيطرة والقوة، ورغبة في الانتقام والتدمير، والجوع المتوقد للمعرفة وحب البحث. تحث هذه الفقرة القارئ على الصمود أمام تلك الشهوات الخاطئة، وتشدد على قيمة قول حكيم يُلهم الفرح عندما ننجح في كبح تلك الشهوات بدلاً من السماح لها بالسيطرة على قلوبنا. تُظهر الفقرة أيضًا الخطورة في ترك الشهوة تسيطر على القلب، مما يجعل ملكية الله للقلب تنتقل إلى ما نشتهي. وفي الختام، تقدم نصيحة بأنه في حال مواجهة الشهوة، من الأفضل الهروب منها بدلاً من دخول صراع قد يؤدي إلى هزيمة، أو على الأقل إذا نجحنا في التغلب عليها، نجنب قلوبنا التلوث بسببها[1]، جاء في الكتاب المقدس: "لاَ تَكُنْ تَابِعًا لِشَهَوَاتِكَ، بَلْ عَاصِ أَهْوَاءَكَ. فَإِنَّكَ إِنْ أَبَحْتَ لِنَفْسِكَ الرِّضَى بِالشَّهْوَةِ، جَعَلَتْكَ شَمَاتَةً لأَعْدَائِكَ".[2]

وتظهر نصوص الكتاب المقدس واقع الشهوات وكيفية التعامل معها بحكمة، وتعكس مفهوم الهروب من الشهوات والابتعاد عن أسبابها بدلاً من دخول في صراعات أو نقاشات غير مجدية، وأن مع كل تفاعل مع الشهوة فإنها تتعاظم، مما يمكن أن يؤدي إلى الاستسلام لها وفقدان السيطرة. ومن الأساليب الخاطئة التي يمكن أن يلجأ إليها الأشخاص لتحقيق شهواتهم مثل الكذب والخداع والاحتيال. ومن الناحية

(١) ينظر: مقالات البابا شنودة الثالث المنشورة في جريدة الأهرام - مقال يوم الأحد ١٨-١-٢٠٠٩ على شبكة الإنترنت، https://gate.ahram.org.eg/.

(٢) سفر يشوع بن سيراخ ١٨: ٣١.

النفسية، يُمكن أن يكون الفرد مغرمًا بالشهوة ويسعى لإشباعها بشكل متكرر دون أن يشعر بالرضا. فالشهوة تأخذ أشكالًا متصاعدة تبدأ من الفكرة وتنتهي بالاستعباد لها، فالأفضل عدم الوقوع في فخ الاعتقاد بأن الشهوة يمكن إشباعها بشكل نهائي؛ لأنها لا تشبع أبدًا وقد تؤدي إلى دورة لا نهاية لها من الرغبة والإشباع[1]، جاء في الكتاب المقدس: "أَمَّا الشَّهَوَاتُ الشَّبَابِيَّةُ فَاهْرُبْ مِنْهَا، وَاتْبَعِ الْبِرَّ وَالإِيمَانَ وَالْمَحَبَّةَ وَالسَّلاَمَ مَعَ الَّذِينَ يَدْعُونَ الرَّبَّ مِنْ قَلْبٍ نَقِيٍّ".[2]

وإن إشباع طبيعة الشهوات لا يروضها بل يُزيدها، وثمة أمثلة واضحة تُظهر كيف يمكن للإنسان أن يكون مجرد تحقيق الشهوة بما يكفي غير كافي ويدفع إلى المزيد من الرغبة، فالشخص الذي يشتهي المال يصبح دائماً يرغب في المزيد من الثروة، وكذلك الحال بالنسبة الشاب الطموح الذي يرغب في الترقية المستمرة، ويُظهر كذلك أن حتى في حالة الشهوة الجسدية، الإنسان قد لا يُشبع منها ببساطة، وخير مثال في قصة آدم وشهوة تجربته مع شجرة الجنة، فالإنسان يمكن أن يكون متجاوزًا حتى على الأشياء التي ليست له، وهذا يتناول أهمية السيطرة على الشهوات التي لا تُشبع أبدا، وقد تدفع الإنسان للبحث المستمر عن الإشباع مما يمكن أن يؤدي إلى تفاقمها بدلاً من السيطرة عليها[3]، جاء في الكتاب المقدس: "لاَ تَتَّبِعْ هَوَاكَ وَلاَ قُوَّتَكَ، لِتَسِيرَ فِي شَهَوَاتِ قَلْبِكَ".[4]

وعلى سبيل المثال، يذكر الكتاب المقدس كيف أنه يُمكن ليوسف الصدّيق أن يكون خاليًا من شهوات داخلية، لكنه على الرغم من ذلك هرب من إغراءات الشهوة الخارجية الممثلة في امرأة تشتهيه، وهذا يظهر أن السيطرة على الشهوة والهروب منها هو الوسيلة الفعالة للتغلب عليها؛ ولهذا فإن الابتعاد عن الشهوات يُعتبر أمرًا ضروريًا، حيث إنها تُعتبر جذورًا للكثير من الخطايا المشتركة، على سبيل المثال، يُعزى الزنا إلى شهوة الجسد، والسرقة إلى شهوة امتلاك أموال الآخرين أو حب الاقتناء. ويمكن أن يبدأ الكذب بشهوة تبرير سلوك معين أو بشهوة الهروب من العواقب. وغالبًا ما يُشجع القتل بشهوة الانتقام أو الحسد، أو برغبة الهروب من الكشف عن خطيئة أخرى. فإذا تمكن الإنسان من النجاة من الشهوة والتغلب عليها من خلال الهروب منها، فإنه ينجح في التغلب على جميع الخطايا التي تنشأ من الشهوة. وبالفعل، اللذة الحقيقية تكمن في النجاح في السيطرة على النفس واحتوائها، وهي أعمق بكثير

(١) ينظر: الحروب الروحية - البابا شنوده الثالث، الطبعة الثالثة، يوليو ١٩٩٢ م.، القاهرة، مطبعة الأنبا رويس (الأوفست) بالعباسية، رقم الإيداع بدار الكتب: ١٩٨٨/٢٩٦٦٣م: ٢٣.

(٢) رسالة بولس الرسول الثانية إلى تيموثاوس ٢: ٢٢.

(٣) ينظر: الاقتداء بالمسيح، للراهب توماس كيمبيس، نقله عن اللاتينية الأب بطرس المعلم البولسي، طبعة جديدة، ١٩٩٩م منشورات المكتبة البولسية، جونية، بيروت، لبنان، تصدير صاحب السيادة المطران بطرس كامل مدور: ٥١.

(٤) سفر يشوع بن سيراخ ٥: ٢.

من اللذة المتعلقة بممارسة الشهوات،[1] جاء في الكتاب المقدس: "كَأَوْلاَدِ الطَّاعَةِ، لاَ تُشَاكِلُوا شَهَوَاتِكُمُ السَّابِقَةَ فِي جَهَالَتِكُمْ، بَلْ نَظِيرَ الْقُدُّوسِ الَّذِي دَعَاكُمْ، كُونُوا أَنْتُمْ أَيْضًا قِدِّيسِينَ فِي كُلِّ سِيرَةٍ".[2]

وجاء فيه أيضا: "أَيُّهَا الأَحِبَّاءُ، أَطْلُبُ إِلَيْكُمْ كَغُرَبَاءَ وَنُزَلاَءَ، أَنْ تَمْتَنِعُوا عَنِ الشَّهَوَاتِ الْجَسَدِيَّةِ الَّتِي تُحَارِبُ النَّفْسَ، وَأَنْ تَكُونَ سِيرَتُكُمْ بَيْنَ الأُمَمِ حَسَنَةً، لِكَيْ يَكُونُوا، فِي مَا يَفْتَرُونَ عَلَيْكُمْ كَفَاعِلِي شَرّ، يُمَجِّدُونَ اللهَ فِي يَوْمِ الافْتِقَادِ، مِنْ أَجْلِ أَعْمَالِكُمُ الْحَسَنَةِ الَّتِي يُلاَحِظُونَهَا.[3]

ثانيا: ترك المعاصي والآثام

يبين الكتاب المقدس في نصوص عدة أهمية التوبة من الذنوب، وأنها تساعد على تطهير النفس وتزكيتها من آفاتها وأمراضها، جاء في الكتاب المقدس: "اَلنَّفْسُ الَّتِي تُخْطِئُ هِيَ تَمُوتُ".[4]

وجاء في الكتاب المقدس أيضا: "اسْلُكُوا بِالرُّوحِ فَلاَ تُكَمِّلُوا شَهْوَةَ الْجَسَدِ. لأَنَّ الْجَسَدَ يَشْتَهِي ضِدَّ الرُّوحِ وَالرُّوحُ ضِدَّ الْجَسَدِ، وَهذَانِ يُقَاوِمُ أَحَدُهُمَا الآخَرَ، حَتَّى تَفْعَلُونَ مَا لاَ تُرِيدُونَ. وَلكِنْ إِذَا انْقَدْتُمْ بِالرُّوحِ فَلَسْتُمْ تَحْتَ النَّامُوسِ. وَأَعْمَالُ الْجَسَدِ ظَاهِرَةٌ، الَّتِي هِيَ: زِنىً عَهَارَةٌ نَجَاسَةٌ دَعَارَةٌ، عِبَادَةُ الأَوْثَانِ سِحْرٌ عَدَاوَةٌ خِصَامٌ غَيْرَةٌ سَخَطٌ تَحَزُّبٌ شِقَاقٌ بِدْعَةٌ. حَسَدٌ قَتْلٌ سُكْرٌ بَطَرٌ، وَأَمْثَالُ هذِهِ الَّتِي أَسْبِقُ فَأَقُولُ لَكُمْ عَنْهَا كَمَا سَبَقْتُ فَقُلْتُ أَيْضًا: إِنَّ الَّذِينَ يَفْعَلُونَ مِثْلَ هذِهِ لاَ يَرِثُونَ مَلَكُوتَ اللهِ. وَأَمَّا ثَمَرُ الرُّوحِ فَهُوَ: مَحَبَّةٌ فَرَحٌ سَلاَمٌ، طُولُ أَنَاةٍ لُطْفٌ صَلاَحٌ، إِيمَانٌ، وَدَاعَةٌ تَعَفُّفٌ. ضِدَّ أَمْثَالِ هذِهِ لَيْسَ نَامُوسٌ. وَلكِنَّ الَّذِينَ هُمْ لِلْمَسِيحِ قَدْ صَلَبُوا الْجَسَدَ مَعَ الأَهْوَاءِ وَالشَّهَوَاتِ. إِنْ كُنَّا نَعِيشُ بِالرُّوحِ، فَلْنَسْلُكْ أَيْضًا بِحَسَبِ الرُّوحِ".[5]

كما أنهم يذكرون أنه إذا كانت رغباتك تطابق ما جاء من قبل الرب فاعلم أن الروح القدس هو الذي يقودك، وفي نفس الوقت احترس أن تخلط بين مشاعرك وقيادة الروح، فالانقياد بالروح القدس يمنحك الرغبة لتسمع، والاستعداد لتطيع، والحساسية للتمييز بين مشاعرك وتحريضات الروح، ويصف الرسول بولس القوتين المتصارعتين داخلنا - الروح القدس وأهواءنا الشريرة - ولا يقول الرسول إن هاتين القوتين متعادلتان، فلا شك في أن الروح القدس أقوى بما لا يقاس، ولكننا نحن ضعفاء لو تركنا لخطايانا لأخطأنا الاختيار، والسبيل الوحيد أمامنا للتحرر من رغباتنا الطبيعية الشريرة، إنما

(١) ينظر: محاضرات في العهد القديم (الجزء الأول) - أ. نجوى غزالي، الطبعة الأولى، القاهرة، رقم الإيداع بدار الكتب: ٢٢٨٩١، ٢٠١٥م: ٧٦.

(٢) رسالة بطرس الرسول الأولى ١: ١٤، ١٥.

(٣) رسالة بطرس الرسول الأولى ٢: ١١، ١٢.

(٤) سفر حزقيال ١٨: ٤، ٢٠.

(٥) رسالة بولس الرسول إلى أهل غلاطية ٥: ١٦-٢٥.

بالقوة التي يمنحنا إياها الروح القدس.

وجاء في الكتاب المقدس: "الْحِكْمَةَ لاَ تَلِجُ النَّفْسَ السَّاعِيَةَ بَالْمَكْرِ، وَلاَ تَحِلُّ فِي الْجَسَدِ الْمُسْتَرَقِّ لِلْخَطِيَّةِ".(١)

لجميعنا شهوات طبيعية شريرة، ولا يمكننا تجاهلها، ولكي نستطيع أن نتبع قيادة الروح القدس، يجب أن نتعامل مع هذه الشهوات بحزم، يجب أن نسمرها على صليب المسيح، وهذه الشهوات تشمل خطايا واضحة مثل الخطايا الجنسية والسحر، كما أنها تشمل خطايا أقل وضوحا مثل الطمع والغضب والحسد، وتجاهل خطايانا أو عدم معالجتها بحزم يحرمنا من أن نرث ملكوت الله. وتسيطر علينا جميعا بعض القوى الخارجية، فإذا كان الناموس هو الذي يسيطر علينا، فلا شك في أن عجزنا عن حفظه يديننا، وإذا كانت الخطية هي التي تسيطر علينا، فإن أعمالنا الشريرة تدمرنا، أما إذا كان الروح القدس هو الذي يسيطر علينا فلابد أن نثمر الثمر المذكور في هذه القائمة، يجب أن لا نخشى سيطرة الروح علينا، فهو لا يمتلكنا رغم إرادتنا، أو يعاملنا وكأننا بلا إرادة كالإنسان الآلي. فهم يذهبون إلى أنه لكي نقبل المسيح مخلصا لنا، علينا أن نرجع عن خطايانا ونسمر - طوعا - رغباتنا الطبيعية الشريرة على الصليب، وليس معنى هذا على أي حال أننا لن نرى أثرا لهذه الرغبات مرة أخرى، فكمسيحيين ما زالت لدينا إمكانية الوقوع في الخطية، ولكننا قد تحررنا من سلطان الخطية علينا، وليس علينا أن نستسلم لها، بل يجب أن نضع يوميا ميولنا الخاطئة تحت سيطرة الله، وأن نسمرها يوميا على صليب المسيح، ونستمد - لحظة بعد لحظة - القوة من الروح القدس للغلبة عليها.(٢)

المطلب الثاني: نتيجة تزكية النفس النجاح في الدنيا والآخرة

جاء في الكتاب المقدس: "أَيُّهَا الأَوْلاَدُ احْفَظُوا أَنْفُسَكُمْ مِنَ الأَصْنَامِ".(٣) "أَيُّهَا الْحَبِيبُ، فِي كُلِّ شَيْءٍ أَرُومُ أَنْ تَكُونَ نَاجِحًا وَصَحِيحًا، كَمَا أَنَّ نَفْسَكَ نَاجِحَةٌ".(٤) فالرسول يتمنى أن يكون صحيحًا جسديًا، كما أنه نفسيًا أي روحيًا صحيح... "كما أن نفسك ناجحة" النجاح ليس النجاح المادي وصحة الجسد، بل نجاح نفسي يتمثل في الإحساس بالشبع والفرح والرضى والسلام الذي يملأ القلب، كما قال داود «أحبك يا رب يا قوتي»(٥) ودانيال ويوسف كانوا ناجحين، وللأسف فهناك من لا يهتمون بحياتهم الروحية وأن

(١) سفر الحكمة ١: ٤.

(٢) التفسير التطبيقي للكتاب المقدس: ٢٥١٠.

(٣) رسالة يوحنا الرسول الأولى ٥: ٢١.

(٤) رسالة يوحنا الرسول الثالثة ١: ٢.

(٥) مز ١٨.

يصرف أولادهم وقتًا مع الله، والله حين يعطي النجاح، يعطي نجاحًا ماديًا مع سلام يملأ القلب وهو سلام يفوق كل عقل، ونجاحا روحيا أي خلاصا أبديًا.(١)

فقد كان يوحنا مهتما جدا بخير وصلاح الناس، وهذا ما يناقض تماما الهرطقة التي شاعت في تلك الأيام، والتي كانت تنادي بالفصل بين الروح والمادة، وتحتقر الجانب المادي من الحياة، فنحن إما أن نهمل الجسد وسلامة صحته، أو نطلق العنان لشهوات الجسد الخاطئة، أما الله فيهتم بجسدك وروحك معا، وينبغي علينا كمسيحيين مسؤولين أن لا نهمل في أنفسنا، وألا نطلق للجسد العنان، لكن لابد أن نعتني باحتياجاتنا الجسدية والمادية، ونعتني بأجسادنا ونهذبها حتى تكون في أفضل حال لخدمة الله.(٢)

"أَيُّهَا الأَحِبَّاءُ فَابْنُوا أَنْفُسَكُمْ عَلَى إِيمَانِكُمُ الأَقْدَسِ، مُصَلِّينَ فِي الرُّوحِ الْقُدُسِ، وَاحْفَظُوا أَنْفُسَكُمْ فِي مَحَبَّةِ اللهِ، مُنْتَظِرِينَ رَحْمَةَ رَبِّنَا يَسُوعَ الْمَسِيحِ لِلْحَيَاةِ الأَبَدِيَّةِ. وَارْحَمُوا الْبَعْضَ مُمَيِّزِينَ، وَخَلِّصُوا الْبَعْضَ بِالْخَوْفِ، مُخْتَطِفِينَ مِنَ النَّارِ، مُبْغِضِينَ حَتَّى الثَّوْبَ الْمُدَنَّسَ مِنَ الْجَسَدِ".(٣)

أي إن حفظ النفس داخل حدود محبة الله معناه أن نحيا قريبين منه ومن شعبه، غير منصتين للمعلمين الدجالين الذين يجذبوننا بعيدا عنه... إن غير المؤمن ضائع، ومحتاج إلى الخلاص، بغض النظر عن النجاح الذي يحققه بمقاييس العالم، وينبغي أن لا نستخف بالشهادة أو نتهاون فيها، فهي مسألة حياة أو موت... ويختم يهوذا رسالته - كما بدأها - بتأكيد أن قوة الله تحفظ المؤمن من السقوط فريسة للمعلمين الدجالين، فبرغم انتشار أولئك المعلمين الزائفين وخطورتهم، فلا يجب أن نخاف منهم، هذا لو وثقنا في الله متأصلين فيه وثابتين فيه.(٤)

(١) ينظر: في العهد القديم (الجزء الأول) - أ. نجوى غزالي، الطبعة الأولى، القاهرة، رقم الإيداع بدار الكتب: ٢٢٨٩١، ٢٠١٥م: ٨١.
(٢) التفسير التطبيقي للكتاب المقدس: ٢٧٤٠.
(٣) رسالة يهوذا ١: ٢٠-٢٣.
(٤) التفسير التطبيقي للكتاب المقدس: ٢٧٤٦.

الخاتمة

بعد هذه الدراسة المختصرة المقارنة بين المسيحية الإسلام، ونظرتها إلى النفس الإنسانية ومراتبها وتزكيتها، يمكن إجمال أهم النتائج بما يلي:

- النفس هي القوة التي بها جسم الحي حياً، ويستدل على إثباتها بما يظهر من الأفعال عن جسم الحي عند تصوره بها، وتطلق على العقل باعتبار تعلقه بالبدن، وهي النفس الناطقة، وتطلق أيضا على القوة الداعية إلى الشرور، والموقعة صاحبها في المحذور.
- في الكتاب المقدس تدل النفس على الإنسان في كليته، باعتباره منتعشا بروح الحياة، وهي لا تكون قط جزءا يشكل مع الجسم الكائن الإنساني، فالنفس - بالمعنى الدقيق - لا تسكن جسدا، وإنما تعبر عن ذاتها بواسطة الجسم، الذي يعتبر هو أيضا - أسوة بالجسد - دالا على الإنسان بكليته.
- يرى بعض العلماء أن كلمة الصوفية مشتقة من الصوفانة وهي بقلة قصيرة فنسبوا إليها لاجتزائهم بنبات الصحراء، وقال آخرون هو منسوب إِلَى صوفة القفا وهي الشعرات النابتة فِي مؤخره كأن الصوفي عطف به إِلَى الحق وصرفه عَن الخلق.
- يحدد بعض العلماء مراتب النفس الإنسانية بثلاثة مراتب، وبعضهم جعلها أربعة، في حين أوصلها بعضهم إلى سبعة، وهي: الأمارة، اللوامة، الملهمة، المطمئنة، الراضية، المرضية، والكاملة.
- من سبل تزكية النفس عند السادة الصوفية: ترك الدعوى، ونكران الذات، طاعة الله في أوامره جميعها، واجتناب نواهيه، ونسبة الفضل لله تعالى وحده وغيرها.
- النفس هي حقيقة الإنسان، وعندما يزكيها الإنسان ويطهرها، فهي الوسيلة بينه وبين الحق سبحانه وتعالى بالعلوم اللدنية والعرفانية.
- يبين الكتاب المقدس سبيلين لتزكية النفس لا ثالث لهما، أولهما مخالفة هوى النفس وشهواتها، وثانيهما ترك المعاصي والآثام، وأن من يزكي نفسه فهو إنسان ناجح في الدنيا والآخرة.

المصادر والمراجع

- بعد القرآن الكريم.

١. إحياء علوم الدين: أبو حامد محمد بن محمد الغزالي الطوسي (ت ٥٠٥هـ) دار المعرفة - بيروت، د ت.

٢. الإشارات الإلهية إلي المباحث الأصولية: نجم الدين أبو الربيع سليمان بن عبد القوي بن عبد الكريم الطوفي الصرصري الحنبلي (ت ٧١٦ هـ) تحقيق: محمد حسن محمد حسن إسماعيل، دار الكتب العلمية، بيروت - لبنان، الطبعة: الأولى، ١٤٢٦ هـ - ٢٠٠٥م.

٣. إغاثة اللهفان من مصايد الشيطان: محمد بن أبي بكر بن أيوب بن سعد شمس الدين ابن قيم الجوزية (ت ٧٥١هـ) المحقق: محمد حامد الفقي، مكتبة المعارف، الرياض، المملكة العربية السعودية.

٤. الاقتداء بالمسيح، للراهب توماس كيمبيس، نقله عن اللاتينية الأب بطرس المعلم البولسي، طبعة جديدة، ١٩٩٩م منشورات المكتبة البولسية، جونية، بيروت، لبنان، تصدير صاحب السيادة المطران بطرس كامل مدور.

٥. تذكرة النحاة، لأبي حيان محمد بن يوسف الغرناطي الأندلسي، تحقيق الدكتور عفيف عبد الرحمن، مؤسسة الرسالة، ط١ ، ١٤٠٦ه ١٩٨٦م.

٦. تفسير التستري: أبو محمد سهل بن عبد الله بن يونس بن رفيع التُستري (ت ٢٨٣هـ) جمعها: أبو بكر محمد البلدي، المحقق: محمد باسل عيون السود، منشورات محمد علي بيضون / دارالكتب العلمية - بيروت، الطبعة: الأولى - ١٤٢٣ ه.

٧. التفسير التطبيقي للكتاب المقدس، التعريب والجمع التصويري شركة ماستر ميديا، القاهرة، مصر، الطبعة الرابعة، ٢٠٠٤م.

٨. تفسير القرآن الكريم وإعرابه وبيانه: محمد علي طه الدرة، الطبعة: الأولى، ١٤٣٠ هـ - ٢٠٠٩ م دار ابن كثير - دمشق.

٩. تلبيس إبليس: جمال الدين أبو الفرج عبد الرحمن بن علي بن محمد الجوزي (ت ٥٩٧هـ) دار الفكر للطباعة والنشر، بيرزت، لبنان، الطبعة: الطبعة الأولى، ١٤٢١هـ/ ٢٠٠١م.

١٠. تهذيب اللغة: محمد بن أحمد بن الأزهري الهروي، أبو منصور (ت ٣٧٠هـ) المحقق: محمد عوض مرعب، دار إحياء التراث العربي - بيروت، الطبعة: الأولى، ٢٠٠١م.

١١. جمع الجوامع المعروف بـ «الجامع الكبير»: جلال الدين السيوطي (٨٤٩ - ٩١١ هـ) المحقق: مختار

إبراهيم الهائج - عبد الحميد محمد ندا - حسن عيسى عبد الظاهر، الأزهر الشريف، القاهرة - جمهورية مصر العربية، الطبعة: الثانية، ١٤٢٦ هـ - ٢٠٠٥م.

١٢. جمهرة اللغة: أبو بكر محمد بن الحسن بن دريد الأزدي (ت ٣٢١هـ) المحقق: رمزي منير بعلبكي، دار العلم للملايين - بيروت، الطبعة: الأولى، ١٩٨٧م.

١٣. الجواب الكافي لمن سأل عن الدواء الشافي أو الداء والدواء: محمد بن أبي بكر بن أيوب بن سعد شمس الدين ابن قيم الجوزية (ت ٧٥١هـ) دار المعرفة - المغرب، الطبعة: الأولى، ١٤١٨هـ - ١٩٩٧م.

١٤. الحروب الروحية - البابا شنوده الثالث، الطبعة الثالثة، يوليو ١٩٩٢ م.، القاهرة، مطبعة الأنبا رويس (الأوفست) بالعباسية، رقم الإيداع بدار الكتب: ١٩٨٨/٢٩٦٦٣م.

١٥. ديوان أوس بن حجر، تحقيق وشرح محمد يوسف نجم، دار بيروت للطباعة والنشر، بيروت، لبنان، الطبعة الأولى، ١٤٠٠ه ١٩٨٠م.

١٦. الرسالة القشيرية: عبد الكريم بن هوازن بن عبد الملك القشيري (ت ٤٦٥هـ) تحقيق: الإمام الدكتور عبد الحليم محمود، الدكتور محمود بن الشريف، دار المعارف، القاهرة، د.ت.

١٧. روح البيان: إسماعيل حقي بن مصطفى الإستانبولي الحنفي الخلوتي , المولى أبو الفداء (ت ١١٢٧هـ) دار الفكر - بيروت، د.ت.

١٨. روح المعاني في تفسير القرآن العظيم والسبع المثاني: شهاب الدين محمود بن عبد الله الحسيني الألوسي (ت ١٢٧٠هـ) المحقق: علي عبد الباري عطية، دار الكتب العلمية - بيروت، الطبعة: الأولى، ١٤١٥ هـ.

١٩. الزاهر في معاني كلمات الناس: محمد بن القاسم بن محمد بن بشار، أبو بكر الأنباري (ت ٣٢٨ هـ) المحقق: د. حاتم صالح الضامن [ت ١٤٣٤ هـ] مؤسسة الرسالة - بيروت، الطبعة: الأولى، ١٤١٢ هـ -١٩٩٢م.

٢٠. السيد النبهان، تأليف هشام عبد الكريم عبد الوهاب، دار المعرفة، بيروت، لبنان، ط٤ ، ١٤٤٣ه ٢٠٢١م.

٢١. الصاحبي في فقه اللغة العربية ومسائلها وسنن العرب في كلامها: أحمد بن فارس بن زكرياء القزويني الرازي، أبو الحسين (ت ٣٩٥هـ) محمد علي بيضون، الطبعة: الطبعة الأولى ١٤١٨هـ-١٩٩٧م.

٢٢. الصحاح تاج اللغة وصحاح العربية: أبو نصر إسماعيل بن حماد الجوهري الفارابي (ت ٣٩٣هـ) تحقيق: أحمد عبد الغفور عطار، دار العلم للملايين - بيروت، الطبعة: الرابعة ١٤٠٧ هـ - ١٩٨٧ م.

٢٣. صحيح البخاري: أبو عبد الله محمد بن إسماعيل البخاري الجعفي، المحقق: د. مصطفى ديب البغا، (دار ابن كثير، دار اليمامة) - دمشق، الطبعة: الخامسة، ١٤١٤ هـ ١٩٩٣م.

٢٤. العقد الفريد: أبو عمر، شهاب الدين أحمد بن محمد بن عبد ربه ابن حبيب ابن حدير بن سالم

المعروف بابن عبد ربه الأندلسي (ت ٣٢٨هـ) دار الكتب العلمية - بيروت، الطبعة: الأولى، ١٤٠٤ هـ.

٢٥. فتوح الغيب في الكشف عن قناع الريب (حاشية الطيبي على الكشاف): شرف الدين الحسين بن عبد الله الطيبي (ت ٧٤٣ هـ) مقدمة التحقيق: إياد محمد الغوج، القسم الدراسي: د. جميل بني عطا، المشرف العام على الإخراج العلمي للكتاب: د. محمد عبد الرحيم سلطان العلماء، جائزة دبي الدولية للقرآن الكريم، الطبعة: الأولى، ١٤٣٤ هـ - ٢٠١٣م.

٢٦. في العهد القديم (الجزء الأول) - أ. نجوى غزالي، الطبعة الأولى، القاهرة، رقم الإيداع بدار الكتب: ٢٢٨٩١، ٢٠١٥م.

٢٧. قوت القلوب في معاملة المحبوب ووصف طريق المريد إلى مقام التوحيد: محمد بن علي بن عطية الحارثي، أبو طالب المكي (ت ٣٨٦ هـ) المحقق: د. عاصم إبراهيم الكيالي، دار الكتب العلمية - بيروت، لبنان، الطبعة: الثانية، ١٤٢٦ه.

٢٨. كتاب العين: أبو عبد الرحمن الخليل بن أحمد بن عمرو بن تميم الفراهيدي البصري (ت ١٧٠هـ) المحقق: د مهدي المخزومي، د إبراهيم السامرائي، دار ومكتبة الهلال.

٢٩. الكتاب المقدس، مطبعة المرسلين اليسوعيين، بيروت، ط١ ، ١٩٢٩م.

٣٠. لباب التأويل في معاني التنزيل: علاء الدين علي بن محمد بن إبراهيم بن عمر الشيحي أبو الحسن، المعروف بالخازن (ت ٧٤١هـ) تصحيح: محمد علي شاهين، دار الكتب العلمية - بيروت.

٣١. لسان العرب: محمد بن مكرم بن على، أبو الفضل، جمال الدين ابن منظور الأنصاري الرويفعى الإفريقى (ت ٧١١هـ) الحواشي: لليازجي وجماعة من اللغويين، دار صادر - بيروت، الطبعة: الثالثة - ١٤١٤ هـ.

٣٢. محاضرات في العهد القديم (الجزء الأول) - أ. نجوى غزالي، الطبعة الأولى، القاهرة، رقم الإيداع بدار الكتب: ٢٢٨٩١، ٢٠١٥م.

٣٣. المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز: أبو محمد عبد الحق بن غالب بن عبد الرحمن بن تمام بن عطية الأندلسي المحاربي (ت ٥٤٢هـ) المحقق: عبد السلام عبد الشافي محمد، دار الكتب العلمية - بيروت، الطبعة: الأولى - ١٤٢٢ ه.

٣٤. مدارج السالكين بين منازل إياك نعبد وإياك نستعين: محمد بن أبي بكر بن أيوب بن سعد شمس الدين ابن قيم الجوزية (ت ٧٥١هـ) المحقق: محمد المعتصم بالله البغدادي، دار الكتاب العربي - بيروت، الطبعة: الثالثة، ١٤١٦ هـ - ١٩٩٦م.

٣٥. المعاني الكبير في أبيات المعاني: أبو محمد عبد الله بن مسلم بن قتيبة الدينوري (ت ٢٧٦هـ) المحقق: المستشرق د سالم الكرنكوي (ت ١٣٧٣ هـ)، عبد الرحمن بن يحيى بن علي اليماني (١٣١٣ -

١٣٨٦ هـ) مطبعة دائرة المعارف العثمانية - حيدر آباد الدكن، بالهند [الطبعة الأولى ١٣٦٨هـ، ١٩٤٩م] ثم صورتها: دار الكتب العلمية، بيروت - لبنان [الطبعة الأولى، ١٤٠٥هـ.

٣٦. معجم الفروق اللغوية: أبو هلال الحسن بن عبد الله بن سهل بن سعيد بن يحيى بن مهران العسكري (ت نحو ٣٩٥هـ) المحقق: الشيخ بيت الله بيات، ومؤسسة النشر الإسلامي، مؤسسة النشر الإسلامي التابعة لجماعة المدرسين بـ «قم»، الطبعة: الأولى، ١٤١٢هـ.

٣٧. معجم اللاهوت الكتابي، بولس باسيم، النائب الرسولي للاتين، أشرف على الترجمة ونظمها علميا: نيافة المطران أنطونيوس نجيبدار المشرق، بيروت، لبنان، ط٢ ، ١٩٨٨م.

٣٨. مفاتيح العلوم: محمد بن أحمد بن يوسف، أبو عبد الله، الكاتب البلخي الخوارزمي (ت ٣٨٧هـ) المحقق: إبراهيم الأبياري، دار الكتاب العربي، الطبعة: الثانية.

٣٩. مفاتيح الغيب = التفسير الكبير: أبو عبد الله محمد بن عمر بن الحسن بن الحسين التيمي الرازي الملقب بفخر الدين الرازي خطيب الري (ت ٦٠٦هـ) دار إحياء التراث العربي - بيروت، الطبعة: الثالثة - ١٤٢٠ ه.

٤٠. مقالات البابا شنودة الثالث المنشورة في جريدة الأهرام - مقال يوم الأحد ١٨-١-٢٠٠٩ على شبكة الإنترنت، https://gate.ahram.org.eg/.